فنان يبحث عن محرر

يسرى الأيوبي

"أريد أن أنحت تمثالا لمحرر أنصبه على باب مدينتي!"

هكذا همس الفنان لنفسه وهو يحس بأنامله ترتعش بالرغبة لتمسك الإزميل وتنحت الرخام، وما أن اكتمل صنعه حتى ألقى به جانبا والغصة تخنقه. لم يستطع أن يحمله شحنة العواطف التي تمور في صدره. كان أثرا تافها عاجزا، وتمتم باكتآب:

"لم تتضح في ذهني الصورة بعد، الحيرة ترجف أناملي فأبرز ما أود إخفاءه، وأخفي ما أبغي إبرازه. لم تصبح يدي مطواعة لفكري، وفكري لم يزل متذبذبا كثير العثرات. أريد أن أثبت عيني على واقع متدفق بالحياة يلهمني فتنطلق يدي لتنحت حياة."

وهجر الفنان عزلته وسار على الدرب بين الناس مرهف الحواس خفيف الخطى يسائل من يصادف "أتعرف محررا؟ دلني على محرر". وكان الناس إما لاه بتجارته، أو بتدبير لقمة عياله، أو بتكديس الثروات من محنة مدينته، فمن محتكر لمياه الشرب ومن قابض على زمام سكن الناس. لقد اكتظ البشر في المدينة وتناسلوا وأصبحوا ثلاثة أضعافهم، فوضعوا الخيام فوق الأسطحة، وسكنوا الأقبية الرطبة الخالية من النوافذ، والتي كانت تفرز للآبار التي تتجمع مياهها من مسيل الأمطار فيستخدمها الناس لحاجاتهم. ووجد الفنان أن مشاغل الناس الصغيرة أنستهم ماهم فيه من محنة كبيرة. كثيرون كانوا يبتسمون لأسئلته بابتسامة العارفين بخبايا الأمور الذين سحقتهم معرفتهم وبددتهم في متاهات الضياع واليأس.

- لن تجد محررا ولو جعلت الشمس مصباحا يضيء لك الطريق.
- أجدبت الأرض من الخصب.
- إشرب من بحيرة النسيان وكف عن هذا السؤال المضني.

وأسرع الفنان في خطوه مبتعدا عن الأيدي التي امتدت لتقذف به في هوة التلاشي والضياع، وقال في نفسه "لاحاجة بي الى هؤلاء، لاأحتمل عتمة أعماقهم، إنهم جعلوا الخنوع فلسفة حياة، ووجدوا في الهروب السلامة، وفي الجبن منتهى الحكمة والتعقل".

وتنهد الفنان "نسي الناس أصل محنتهم، وهم بين مفجوع وانتهازي ويائس. سأذهب الى أخي سليم في المدينة المجاورة. إنه صاحب النوايا الحسنة. سيدلني على محرر، سينجدني في الحال عندما أشرح له حالي وحال أبناء مدينتي الذين يهددهم نمر شرس ويمنعهم من الحياة الطبيعية المنتجة".

كان سليم عالما بيولوجيا اشتهر بقدرته الفائقة على ترويض الحيوانات المفترسة، فكان كل مروض يدرس بإمعان كتبه وهي حصيلة تجاربه عن الدورة الدموية، وعملية الغدد الهاضمة وردود الفعل الإنعكاسية. وكانت تجاربه واختباراته في ترويض الحيوانات تنتشر ويصبح لها صدى عالمي. توصل الى نتائج باهرة في أن الإفتراس هو نوع من المرض العصابي يصيب الحيوان المفترس بسبب تدفق في عصاراته الهاضمة تجعله لايعي ما يفعل. فهي تؤثر على أعصابه وتدفعه للبحث عن فريسة ما يسد بها سغبه. وعندما وصل اليه أخوه الفنان يشكو الحال التي يعانيها أبناء مدينته بسبب عدوان النمر عليها كان سليم يطور نظريته ويطبقها من عالم الحيوان الى عالم المجتمعات الإنسانية.

قال لأخيه الفنان موضحا:

- إنه الجوع.. الجوع هو المحرك لكل أفعال الحيوان، أكان ناطقا أم غير ناطق. ان وجدت الطريقة لتطمين هذا الجوع نزعت من النمر مخالبه وأنيابه، ومن الأفعى سمها، ومن كل مخلوق عدواني عدوانيته. الفارق بين حيوان نباتي وآخر مفترس هو الفارق بين كمية العصارة الهاضمة التي يفرزها هذا وذاك وتأثيرها على أعصابه. فإن كانت قليلة متباعدة في الزمن، كان الحيوان عفّا مكتفيا بالقليل، يمج طعم اللحم، ولا يلذ له الا النبات طريا كان أم جافا. أما إذا كانت متدفقة ملحة أصاب الحيوان الهوس والجنون، وانبرى يطور أسلحته العدوانية

حتى يحصل على حاجته قوة واقتدارا. أضف الى هذا الخوف، ففي عالم الحيوان ليس هناك الاّ أحد وضعين: إما أن تكون مفترسا أو ضحية.

قال الفنان:

- فهمت ما قلت، ولكنني لا أريد أن أضيع في متاهات العلم، بل أريد حلا عمليا لمحنة أبناء مدينتي؟ ان النمر يتصيدهم في ذهابهم ورواحهم. أغلقوا على أنفسهم أبواب سور مدينتهم، ولزم الكثيرون بيوتهم، وما عاد المزارعون يذهبون لزراعة الحقول، والرعاة لرعي ماشيتهم، ولا البناؤون يبنون خارج الأسوار، ولا الأطفال يذهبون الى مدارسهم، والشباب الى جامعاتهم خوفا من أن يقتنصهم ذلك النمر المهووس الذي يتصيدهم فرادى عزل وعلى حين غرة.

قال سليم:

- صفه لي، فلعلي أعرف نوعه وفصيلته وبالتالي طريقة علاجه.

أخرج الفنان من جيبه مجموعة من الصور وطرحها أمام أخيه:

- ها هي صوره. التقطتها بنفسي وكدت أدفع في ذلك اليوم حياتي. كنت أحمل آلة تصوير وأتجول في الحقول لألتقط مناظر بهيجة للشمس الغاربة بألوان الغيوم المشعشعة حولها، فأعود لأرسمها بالألوان الزيتية على لوحات كبيرة ليزين الناس بها منازلهم، وإذا بي أسمع فجأة هريره. تسلقت شجرة جوز وشاهدته يمزق بين مخالبه وأنيابه طفلا. وذكرت ما يشاع عن أطفال مفقودين لم يعودوا الى بيوتهم، ومشاهدة المارة لحقائبهم المدرسية وقد تبعثرت منها كتب مدماة. كنت قريبا من الموت قرب لهاثي ووجيب قلبي من مسمعي، ومع ذلك قمت بتصويره مقتربا منه قدر ما أستطيع. فإن كانت منيتي حانت فلا أقل من أن يشاهد الناس أثرا مني صادقا مفحما فيسعون لإنقاذ أبنائهم قبل أن يفوت الأوان.

قال سليم وهو يتمعن في الصور:

هذا نمر من سلالة تنقرض.. ان يمر طويل وقت حتى يصبح كالديناصور تماما. حدث أن قمت بتجاربي على واحد من هذه السلالة. ربيته وهو صغير مع حمل وجرو. وكنت أطعمه قبل أن تتدفق عصاراته الهاضمة فنشأ أنيسا ودودا وكبر مع الحمل والجرو، وكانوا يعيشون معا كأوفى الأصدقاء. وعمل ثلاثتهم في

سيرك مشهور تجول حول العالم ليثبت لكل الناس أن الإفتراس مرض يمكن معالجته بالحكمة والفهم.

قال الفنان نافذ الصبر:

- ان هذا النمر الذي يهاجم مدينتي عاش بريا لايعرف أحد له أصلا أو موطنا معينا.

أضاف العالم وهو يدلي بآخر ما عنده:

ان استطاع أحد أن ينصب له كمينا يقتنصه، تصبح عملية ترويضه ممكنة ولا أقول سهلة لأنه كبر على الترويض. ولكنني لا أكتمك أن كلفته غالية.

هز الفنان رأسه بخيبة أمل وقال:

- لو استطعنا أن نحظى به حيا لكنا أرسلناه الى القطب الشمالي أو الأدغال الإستوائية. لماذا علينا أن نتحمل كلفته الغالية؟

* * *

غادر الفنان المدينة دون أن يحظى بما يشفي غليله. ركب دراجته النارية وذهب الى عاصمة أخرى في الجوار، وحين وصل الى ساحة المدينة شاهد جمعا غفيرا احتشد فيها، وعلى منصة وقف خطيب. وكانت الجماهير تصفق له بعد كل عبارة وكأنها كمنجة تهتز أوتارها لأصابع عازف ماهر.

قال الفنان لنفسه:

- هاهو رجل لايجود الدهر بمثله، فلعلي أجد عنده بغيتي.

أصغى الفنان ليعرف مصدر سحر العبارات التي تلهب الجماهير فلم يسمع الا كلمات براقة تتردد في كل عبارة، "الشعب، الوطن" ولكنه لم يفهم مضمون الخطاب، ولم يبد أن أحدا يبالي بمضمون ما يقول، فقد طغى الهرج والتصفيق على كل ما يقول.

أخذ رجل قربه يومئ اليه أن يفعل كغيره ويصفق كالباقين، محاولا إقناعه بالإشارات، ثم يعود الى الهتاف بحماس كبير.

وضع الفنان يده على كتف رجل يقف أمامه فاستدار وسأله:

ماذا يقول الخطيب؟

غمغم الرجل بلهجة فيها توجع مكتوم وكأنها آهات نغم حزين، وعاد الى التصفيق مع المصفقين.

ماذا جرى للرجال؟ إنه لم يسمعهم يتكلمون.. كان رجل قربه يتأتئ بما لا يفهم، وآخر يرتل وحده نغية لا مبالية ناشزة لا انسجام فيها ولا جمال.

وانتابت الفنان قشعريرة باردة فأخذ يندفع بين الناس يسأل هذا وذاك فلا يجيبه أحد الا بالغمغمات والإشارات والضحكات والتأوهات، أو الصياح بلغة حيوانية هي أشبه ما تكون بلغة شعب أخرس.

أصغى مرة أخرى فسمع الكلمات ذاتها تتردد. لم تكن توحي له بشيء، أو لعل لها مدلولا آخر يفهمه القوم ويعصى عليه. صمت الخطيب فاشتدت عاصفة التصفيق، وخرج الى المنصة حملة سلال، وشاهد الفنان الأيدي تتعالى ملوحة. ولم تلبث أن انهمرت على الجموع أرغفة طازجة شهية، فكان الطوال يتلقفون بالأيدي، والقصار ينحنون ليلتقطوا ما وقع على الأرض. وكان بعضهم يلتقط رغيفه موحلا مداسا بعد أن يتصبب عرقه من الدقّاع فيمسحه بكمه ويوريه فمه، والجميع في غبطة متناهية بالتبطل والمجانية، تعبر أصواتهم ولجبهم عن الرضى لما ينالون ويطعمون. وكانت السلال تأتي ملأى وتذهب فارغة وفيها فاكهة ومشتهيات أخرى، ووقف الفنان يتأمل مشهد الناس ولعابهم يسيل وألسنتهم لاهثة، وأيديهم ملوحة وكتلهم البشرية مائجة متدافعة متكالبة، تصدر صيحات فرح حيوانية وتصفق تصفيقا يصم الآذان لما خيل اليها أنها فيه من نعيم. وأحس الفنان بالغثيان وانسحب حزينا لإنسانية الإنسان التي تهان، فاذا به يسمع أصواتا بشرية أبحة تضيع في اللجب وتحتج بهمس خافت لايكاد ينتبه اليه أحد الا اذا أوتي سمعا حادا، فذهب الى مصدر الصوت متحريا فوجد رجالا هزالى خلف القضبان فسألهم:

- فيم أنتم هنا لا تشاركون في الوليمة؟
- أفضل لنا أن نقتات بالأعشاب.
- غريب أمركم.
- للولائم ثمن ونحن نرفض أن ندفع الثمن.
- أي ثمن؟

- أن يقطعوا درهماً من ألسنتنا!

- إنه حقاً ثمن باهظ.. ألهذا لايتكلم هؤلاء الناس بلغة مفهومة؟

ولم يجب أحد، وصمتوا وبان الذعر في عيونهم وعلكوا ما بأيديهم من عشب ليكاتموا غضبهم، حين تقدم من الفنان سجّان يمسح شاربيه الكثيفين بكفه بعد الوليمة، ثم يلوح بسوطه مهدداً السجناء أن يبتعدوا عن القضبان.

التفت إلى الفنان وقال برقة متناهية:

- تعال معي أيها الغريب!

- إلى أين؟

- إلى حيث أستضيفك في منزلي وأكرمك.

- لدي كسرة خبزي في هذا الكيس على ظهري.

وضحك الشرطي:

- أيها الأحمق، لن تدرك ما أنت فيه من حرمان حتى تُطْعَم على مائدتي ألواناً شهية.

- أتطعمني مجاناً:

- لست أطلب منك إلا ثمناً زهيداً.

- كرمك مشروط؟

- تَصوّر. درهم لحم طازج مقابل مائدة عليها أشهى الألوان. كل رغائبك، كل مشتهياتك أحققها لك مقابل درهم لحم فقط.. درهم واحد.

وأحس الفنان بالرعشة تجتاحه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وتجاهل قصد محدثه.

- ليس في كيسي لحم طازج.

ضحك الرجل ساخراً من بساطة الفنان.

- لسنا بحاجة إلى ما في كيسك.. نقطعه من جسمك.

- من جسمي!

- ماذا في الأمر. إنك لن تتألم.. أبداً!.. نقوم بتخدير موضعي ونقتطع ذلك الدرهم.

- من أي مكان من جسدي؟

- بل من عضو زائد في الجسم كالزائدة الدودية.. من لسانك.

- لساني!

- ثق لن تشعر أبداً بالعذاب، فلسانك سيبقى كافياً لك لتلتهم أطيب الطعام، وتهمس في أذن حبيبتك بأرق الألحان، وتديره في حلقك كما تشاء، في أية جهة تشاء، إلى اليمين، إلى اليسار، إلى فوق، إلى تحت. لك كل الحرية.

- ولكنني أصبح أخرس.

- وماذا في هذا؟ ما حاجتك للسان؟ معظم أهل النار من ألسنتهم. ندلك على طريق النجاة.

- النجاة! لم لاتنجو أنت بنفسك.

= أنا قد خلعت جذوره في الدماغ، أما أنت فعرضة للمرض. ستحمدنا على ما نفعله لك.. إننا ننقذك من بلاء عظيم يصيب البشر.. عندما خلق الله الإنسان خلق فيه عضواً لافائدة فيه وهو عرضة لمرض خطير. ولذلك قررت جمعيتنا الخيرية رفقاً به أن تخلصه من هذا العضو الفاسد كما يخلص الطبيب المصاب بالتهاب الزائدة باستئصالها له.

- ولكن لساني غير فاسد ولا مريض.

- إنه عرضة لذلك، إنك تحمل داء وبيلاً لا تشعر به، تعال، تعال معي. وأمسك بيده بحفاوة بالغة يسحبه بيد ويطوق خصره بالأخرى، فارتعدت فرائص الفنان وقال:

- لست أستغني عن لساني، وإلى ذلك إنني غريب ولاحق لك أن تفرض علي شيئاً بالقوة. إن قوانين بلادي تحاسبك!.

فتركه الشرطي عاقداً بين حاجبيه مصراً على أسنانه وقال :

- أحمق، ندلك على العافية ولا تريد لنفسك سوى البلاء.

-إنني بحاجة إلى لساني لأنحت، فهذه مهنتي. وقهقه الشرطي:

- هل تنحت بلسانك. أهذا ما يسمونه بالنحت السريالي؟.

- أنحت بيدي.

- نحن لن نقطع يدك كما يفعل اللصوص الكبار باللصوص الصغار حين ينفذون أوامر رؤسائهم.

- ولكن يدي تشل لو قطع لساني.

- وهم! إنك لم تجرب.

- لست واهماً إنها تجربتي.. سجنت يوماً في زنزانة، ولم يكن قربي من أحدثه ففقدت القدرة على النطق. لقد ظن المحقق أنني أمثل فضربت وأثخنت بالجراح، وحمدت الله أن ذلك العجز أصابني فساعد فيّ غريزة التحدي. ولكنني حين فقدت القدرة على النطق فقدت لدهشتي القدرة على التفكير، وحين فقدت القدرة على التفكير، فقدت يدي القدرة على الحركة. وكنت أريد أن أستمر في المقاومة وقد أرعبني مصير الشلل الذي ينتظرني، فاخذت أقوم بالتمارين الرياضية في الزنزانة، ولكن الشلل كان ينشب في براثنه، وأخيراً أدركت مصدر علتي.. إن لساني لاينطق!.. فأخذت حجراً صغيراً خلعته من كسر في الأرضية وأخذت أحفر صوراً رديئة بصوت مسموع. فعاد لفكري توهجه وليدي قوتها، ولكن الصور لم تعجب الحارس والحوار أزعج نومه فأخذ مني الحجر. وأحسست بتعاسة كبيرة إذ أصابني الداء من جديد، داء الشلل.. وأخيراً وجدت الحل. ضربت أنفي بالجدار ضربة شديدة فسال منه الدم، وغمست أصابعي بدمي ورسمت على الحائط صوري وعدت إلى الحوار. وأزعجت الحارس رغماً عنه فكان عاجزاً عن منعي من جنوني فتركني لشأني وهو على ثقة أنني سأستنزف يوماً دمي كله وأموت. ولكنني لم أمت كما ترى وتعلمت تجربة ثمينة هي أن لا أفرط بلساني أبداً لأنه عزيز علي.. وهو تافه القيمة لغيري.

- من قال لك أنه تافه القيمة. درهم من هنا ودرهم من هناك فنصنع من مجموع الألسنة وجبة كباب شهية للخطيب. إنه لا يحب أكلة سواها، إنها تجعله أعظم خطيب في العالم. قمة البيان!.

- هذا لأنه الخطيب الوحيد!

- وهل من الضروري أن يتكلم كل الناس؟

- لن يكون الإنسان مواطناً حتى يتكلم.

- بلبلة الألسنة وهن للإرادة، والخطيب لايحب أن يقاطعه أحد..

- لأبحث عن محرر في غير هذا المكان.

كان كمن يتحدث مع نفسه، فسأله الشرطي:

- هل تبحث عن محرر؟ هو ذا محرر، قمة في البيان، فلماذا تسافر بعيداً.

منذ دهر وهو واقف على هذه المنصة يتحدث عن التحرير، لم يفتر له لسان ولم ينضب معين.. ألاترى كم يبذل من جهد فوق طاقة البشر؟

- هل هو مصاب بشلل المنصة؟ لماذا لايحول القول إلى فعل؟ ونظر الشرطي إلى الفنان شذراً والغضب يتأجج في صدره فاستطرد الفنان:

- لم أخبرك أن محتكر الكلام كالمحروم منه، كلاهما يصاب بالشلل!

وارتفع سوط السجان مهدداً، فولى الفنان هارباً من جعجعة الطبول التي تهدر ولا تحرر، من قمة البيان!.

ركب دراجته وولى وجهه نحو مشرق الشمس وهو يقول بنفسه:

- لعلي أتعلم شيئاً من هناك، إن طالب المعرفة لا تثبط همته بعد الشقة وطول الطريق.

رأى رجلاً حليق الرأس حليق الوجه والشاربين. كان في طريقه إلى الهيكل خارج المدينة. ولما علم ببغية الفنان أشرق وجهه المتجهم وأومضت عيناه الصغيرتان الغائمتان.

- سأدلك على رجل هو قمة بين المحررين. لم يأخذ بأفكاره الرائعة طبيب أو مغن أو عامل إلا كانت له كزهرة المعرفة التي تفتح أبواب الساحر السبع، وتكشف دجله فيبطل سحره، ويصبح عمود دخان. فتنطلق العصافير السجينة من أسرها لتعمر الأرض بالفرح والغناء.

وارتعش قلب الفنان شوقاً وقال:

- دلني عليه، أحس أن في قدمي قد نبتت أجنحة.

ولكن الطريق إليه كانت بعيدة متشعبة فأراد الرجل أن يطوي الزمن بالحديث فقال:

- منذ مدة أصيب رجل من بلدتنا بجلطة قلبية في الطريق فحمله الناس إلى المستشفى، وكان قد مضى على وفاته أكثر من خمس دقائق هي في عرف الطب الحديث كافية لموت الإنسان الكلي، وفي عدم نجاح أية عملية لإعادة الحياة إلى المتوفي. ولكن الطبيب الذكي ذكر أفكار محررنا بأن علينا أن لا نأخذ ما يأتي من خارج المدينة كشيء مسلّم به، فأنار الخاطر ذهنه وأجرى العملية فكانت ناجحة وأعاد الحياة إلى المتوفى.

سأل الفنان دهشاً:

- هل المحرر طبيباً؟.

أومأ الرجل برأسه نفياً، وأسرع الخطى فحث الفنان السير، وبلغا معاً الطريق المؤدية إلى الهيكل. ولاحظ الفنان لافتات في كل مكان. واستغرب أن الأشجار دون جذوع فردت فروعها المتشعبة على الأسيجة وهي محملة بالثمار، سأل دليله عن معنى ما كتب على لوحة فأجاب " طريقة حديثة في الزراعة من أفكار المحرر. سأل:

- هل المحرر عالم زراعي؟.

ولم ترد عليه سوى زفزفة الريح بين الشجر، واستمرا في السير. كانا يدوران حول سور المدينة، وتوقف الفنان عند أناس تجمهروا في ساحة واسعة عند أحد أبواب المدينة حول راقص باليه، رائع الحركات، فسحر به، ولكن لم يلبث أن جذب انتباهه لوحة عليها صورة الراقص وتحتها كتابة سأل عن معناها، فقال له الدليل:

- رقصة رائعة من أفكار المحرر.

- هل المحرر راقص أم مؤلف موسيقي؟ وجاءه الرد:

- انه كل هؤلاء الناس الذين أطلق إبداعهم، انه قمة المعرفة!.

وتوقف الفنان فجأة وقال:

- أريد أن أعود، انني أبحث عن انسان ولست أبحث عن اله. لاأريد أن أدخل الهيكل وأكون متعبدا في هيكل حمقى.

- ألا تصدقني؟

- انني أكره النفاق ولا أحب المبالغات. المعجزات كانت من تراث الماضي، في طفولة الانسان. أما المعرفة فهي تراث انساني لن يملكها انسان بمفرده، فلم يحق له أن يقطف ثمارها وحده؟ أريد أن أعود، لم تكن رحلتي الى هذا المكان موفقة.

- نكاد نصل.. ألا ترافقني بقية الطريق فترى أنني أصدقك الحديث.

- لا لقد ضقت بك.

- ماذا فعلت؟ ماذا تأخذ علي؟

- لاشيء، أنت طيب وشديد الولاء، ولكنني لاأحب التعصب الأعمى، والكره المقيت لكل الرياح التي تأتي من خارج المدينة. الجو في بلدكم خانق لا يطاق.

- نحن نخشى على مدينتنا من مجاري الرياح، فربما تكون آتية من أوجار النمور.

- ألا ترى بأن التقوقع ينتهي بالدجل، والدجل يخلق المعجزات، والمعجزات تتكشف عن أوهام، والأوهام تسلب الإنسان مصداقيته فينهار كل ما بناه؟ ان المعرفة حتى لو جاءت من أوجار النمور تبقى معرفة، ملك الإنسان ومن أجل تطوره. حدثتني عن طبيب لاأشك بأنه دجال كبير. إذ كيف يقنعك بأنه يحيي الأموات؟

- ولكنه أعاد الحياة لإنسان مات. ليس دجلا صدقني!

- كم مرة يستطيع أن يكرر الحادثة حتى تصبح علما يؤخذ به؟ ولم يجب الدليل، فأضاف الفنان:

- انه دجال حين يقرن نجاحه بأفكار المحرر، سلوكه يوحي بالدجل. لعل من ظنوه ميتا كان لايزال في حدود الزمن الذي يبقى فيه الإنسان حيا حتى لو توقف نبضه. فأي من الناس الذين نقلوا الرجل نظر في ساعته ليعرف اللحظة التي حدثت فيها الوفاة. الإنسان يلتهف أمام منظر الموت ويخطئ تقدير الزمن.

- القصة واقع وشهودها كثر.

- ألا ترى أنك تميل لتأكيد المعجزات؟ أنعود اليوم باسم العلم الى أساطير طفولة الإنسانية؟ لاشيء يثبت القصة وليست دليلا على أن العلوم الموضوعية بأسرها خاطئة وتلك التجربة هي المصيبة. حتى الشواذ يثبت القاعدة، إذ أن الطبيعة لاتغير قوانينها إكراما لأحد حتى الأنبياء والرسل.. أما بالنسبة لي فالقصة توحي برغبة جامحة لتأليه إنسان، لاشك أنه عظيم الاّ أنه كإنسان لاتملك طاقته أن تلمّ بجزء ضئيل من المعرفة الإنسانية المنتشرة في العالم!.

- ولكن هناك درجات. ان المحرر هو قمة المعرفة!.

- ليس في المعرفة من قمم. انه حلقة من تلك السلسلة الرائعة التي بدأت بغيره ولا تنتهي به أو تقف عنده. انها إهانة لإنسان عظيم أن تجعل منه منجما أو ضارب ودع أو مجترح معجزات أو خبيرا بكل الإختصاصات. فاذا نجحت عملية طبيب فهي من أفكار المحرر، واذا برع راقص فبمهارة المحرر. هذا الكلام مضحك. بالنسبة الينا مثل هذا التأليه عماء، لانستطيع فهمه أو احتماله.. انطفاء الرجال يخلق الآلهة، ونحن نعرف قدر الرجال ولا نعبد البشر.

- لن أستطيع أن أقنعك بعظمة هذا الإنسان ما دمت لم تره.

- بل أصبحت راغبا في رؤيته، غيرت رأيي، وسأخبره عن انطباعاتي حين أراه.. لاأحسب أنه يرتاح لما يقال عنه ويكتب من مبالغات، إنها ليست في صالحه..

واستغرق الدليل في الضحك فامتعض الفنان:

- ماذا يضحكك؟

- أتحسب أن رؤيته ممكنة؟ تصور أنه يسمح أن يقابل الملايين التي تطمح لرؤياه! سأذهب بك الى رئيس التشريفات، فهو الذي يستقبلك.

واشتعل غضب الفنان:

- عرفت أخيرا. انه سجينكم أيها الكهنة كي تتاجروا به وبمعجزاته. انه أبسط مما تهولون وأعظم مما في أنفسكم!.

* * *

وهكذا افترقا غاضبين، وركب الفنان دراجته النارية وسار في الأرض باحثا متحريا، يقطع المسافات البعيدة وكأنه مثبت الى الأرض. تهرب منه الأشجار والتلال والوهاد وتختفي وراءه، وتنتظم الأيام كأنها عقد من اللؤلؤ والكهرمان يتناوبان أمامه دون تمييز. ففي كل مكان تتشابه الطبيعة والناس، آلامهم واحدة، وآمالهم واحدة، وهو بدوره كان له أمل يحدوه أن يصادف من يدله على مطلبه. شاهد يوما رجلا يرتدي ملابس الفضاء ويشع وجهه بالطيبة والشجاعة واللهفة لاستكناه المجهول وهو جالس في مقصورة سفينته الفضائية على استعداد للطيران بها الى القمر. من يصدق أن القمر أصبح في متناول الإنسان؟ وفكر أن رائدا اكتشف يوما العالم الجديد، فكان بدء استغلال الإنسان، وتجددت فيه عبودية هي أشرس مما عرف في ماضيه. أترى اكتشاف القمر يكون بدء تحرر الإنسان؟ كم هو عظيم هذا الإنسان الجديد، وكم هو ثمين عقله المفكر وجرأته وشجاعته، وكم هي رائعة إنجازاته!!!

هتف الفنان وقد تفاءل خيرا:

- أرجوك دلني على محرر يا من تغزو الفضاء والكواكب!

فابتسم الرائد والتفت الى رجل كهل باسق الجبين كابي العينين وقال:

- اسأله، انه قمة في العلم، يدري ما لاأدري.

فأعاد الفنان على رجل العلم سؤاله:

- أرجوك دلني على محرر أيها العالم العظيم.

ولكن الرجل لم يجبه، بل كان يدور بعينين قلقتين حتى استقر بصره على رجل بين الجمع ليس فيه ما يميزه. وبدا العالم وكأنه يستأذنه في الكلام، فأشار اليه أن يصمت. وتقدم بنفسه من الفنان وقال:

- أنا المفوض للحديث مع الأجانب، توجه بسؤالك لي.

فلما أعاد الفنان عليه السؤال أجاب باقتضاب:

- انتظر! لدينا الآن قضايا كبيرة الأهمية لها الأولوية!.

تملك الفنان شعور الخيبة بعد كل ما علق على رجل الفضاء من آمال:

- أنى لي الإنتظار؟ كل مدينتي في ذعر لأن نمرا اعتاد أن يهاجمها في الظلام ويفترس من بينها عددا كل ليلة. ولى الناس هاربين والتجؤوا الى أمكنة أخرى تاركين الأرض والمتاع. ولهذا أبحث عن محرر.. أليس لتحرير الإنسان على الأرض الأهمية الأولى؟

- إن حكماءنا تقول بأن المحررين لا يغتربون.

- لاأ ريد أن يحمل أحد عني أعبائي أو يأخذ دوري. أريد فقط سلاحا فعالا في القضاء عليه.

- لدينا سلاح ولكنه لاينطلق، لانريد له أن ينطلق لأننا نخشى البؤر الملتهبة في العالم.

تأوه الفنان وقال:

- ما فائدة سلاح لا ينطلق؟ كيف تتخلص مدينتي التعسة من آلامها؟

- من أجل السلام لا ينطلق.

- أتمنى السلام، ولكن ليس السلام الذي يسحق حريتي، ويكبلني بالإلتزامات، ويحرمني الدفاع المشروع عن مدينتي، ويسرق قوتي، ويستعبد قومي، ويجعلهم عاجزين أمام نمر يجتاح ديارهم. أتفعلون أنتم ذلك حين تهددون بمثل ما نهدد به؟

تململ المفوض للحديث مع الأغراب وقال:

- لاتحسب أن النمر، كما يقول جيراننا، هو صورة تتحرك على شاشة تلفزيون. أهرق ذات يوم نمر الكثير من دمائنا، وكل بيت من بيوتنا فجع بعزيز. دفعنا ملايين الضحايا، كنا نجرفهم بالرفوش وندفنهم في مقابر جماعية. نحن حتى اليوم نعاني من الجرح البيولوجي، ومن نقص الرجال. ولهذا نحن نحرص على السلام.

- الموتى لايشعرون، ولكن الأحياء الأموات يشعرون عندما تجرفهم الرفوش من أوطانهم!.

- انها ضريبة باهظة..

- حقا هي ضريبة باهظة، ولكن لسنا نحن من أرادها بل فرضت علينا!. الآن كنت أفكر كم هو ثمين الإنسان وكم حياته غالية، لو أن هناك طريقة أخرى لخلاصه وحريته. لو لم تدفعوا أنتم هذه الضريبة ما كان بوسع ذراريكم أن تناطح السماء وتغزو القمراليوم.

وتنبه المفوض الى نفسه عند ذكر القمر، ونظر في ساعته وقال مستعجلا قطع الحديث:

- يجب أن نسرع فلا وقت لدينا للكلام.. إننا ندخل مباراة سلمية مع خصومنا، وأخشى أن يكون سوانا أرسى قواعده على القمر قبلنا.

واندفع راكضا فهتف به الفنان:

- ونحن والنمر؟

- انتظر حتى نعود. الإنسانية الظافرة لن تترك على الأرض نمورا. سنمسك بها كلها ونروضها، بل نحن بتنا نخشى من انقراضها، ونريد في متاحفنا نماذج حية عنها وهي محنطة. انها تنقرض وتصبح كالديناصور. هذه حتمية. ثق بنا وادع لنا بالتوفيق.

وأفسح للرائد الذي تلقى الأمر من العالم، فأدار محرك الصاروخ، وتعالت المركبة في الفضاء بذيلها الناري حتى اختفت عن الأنظار.

وهتف الفنان:

- ليوفقكم الله!

وهمس لنفسه:

- ولكنني لا أستطيع الإنتظار.

* * *

وعاد الفنان حزين القلب ثقيل الخطى وعيناه على حصباء الطريق، فمر به شيخ ناصع المشيب يتوكأ على عصى السنين، ولما عرف أمره وما يبحث عنه قال راجف الصوت:

- اتبعني إلى شعاب هذا الجبل، إلى حيث هذا الهيكل البديع الذي يتراءى خلف الضباب فهناك ستجد تمثال محرر.

- ولكنني أريد جسداً حياً لاتمثالاً.

- إنه تمثال حي تدب فيه الروح من حين لآخر.

- الطريق إلى الجبل شاق طويل وأنا كما ترى ألهث تعباً، كما أن دراجتي لا تستطيع الصعود. أخبرني عنه ولم أقمتم له تمثالاً؟

- لقد كذبناه حتى امتحنه غزال فعرفنا أنه قمة الأخلاق!.

- وكيف كان ذلك؟

- كان المحرر في الغابة يوماً فمر به غزال يجري وقال له: " أنقذني إن صياداً يبغي قتلي "

ففكر في نفسه: " إذا أردت أن أفي بعهدي، فعليّ أن أنقذ هذا الغزال". ونثل حفرة في الأرض أخفاه فيها ثم غطاه بأوراق البلوط، وأمره أن يبقى ساكناً. ولم يمض وقت طويل حتى برز الصياد: " أخبرني هل رأيت غزالاً؟ أين ذهب؟ إنني سأقتنص هذا الغزال". فماذا يفعل؟ لو أنه أجاب بالنفي لجنح إلى الكذب، ولو أنه أجاب بالإيجاب لخان الغزال فتقع الجريمة على عنقه، وهكذا لم يقل شيئاً. فركله الصياد في جنبه، ثم دفعه في الجنب الآخر ولكنه وقف وكأنه قدّ من صخر. فبتر الصياد ذراعه اليمنى ثم اليسرى ولكنه بقي صامتاً. وعندها وقع الصياد على ركبتيه وعبده!.

تأمل الفنان وجه محدثه برهة وقال:

- شاهدت صاحبك يوماً يدمي على الصليب ويتمتم: " أدر خدك الأيمن لمن يلطمك على الخد الأيسر". لاشك أنه عظيم.. رجل يضحي في سبيل مبدئه، ويعلم الناس الصدق والصبر والسلام. ولكن هيكله جدير أن يكون مدرسة للصيادين، لكن الغزلان لن تنتفع بدروسه!.

* * *

وتركه وعاد يسير أدراجه إلى مدينته وقد أنهكه التعب ويئس من أن يجد محرراً. وكانت العتمة قد لفت الأرض وهو يحث الخطى، وأخذ يتلمس طريقه في الحلكة. وخيل إليه فجأة أنه يصغي إلى هدير. أتراه أخطأ الطريق؟ أتراه ضل؟ في أي مكان هو من العالم؟

وفجأة سطع المكان بنور كاشف، وكان الهدير يعلو في مسمعه ويقترب منه. وحطت طائرة على مقربة منه وسمع من يناديه:

- إلى أين أيها الرجل؟

- أضرب في الأرض باحثاً عن محرر ولعلي خطئت دربي.

- تعال معي. سأحملك على طائرتي.

- وركب الفنان مع الرجل، ولم يستطع أن يتبادل معه الحديث لأن الكلام يغرق في الهدير. وأغفى وقد أنهكه التعب. لم يدر عدد الساعات التي أغفى بها. واستيقظ على من يهزه فائلاً:

- ها قد وصلنا!

ولمعت أمامه أضواء باهرة لمدينة شامخة رائعة تموج في أنغام عذبة تتسلل من المسارح ودور الأوبرا. قال الرجل:

- أنت في مدينة الحرية وهاك تمثالها.

أجفل الفنان وقال والرعب قد أخذ عليه مسالك التفكير.

ولكن المدينة تعج بنمور طليقة. ضحك الرجل وقال:

عن أي النمور تتكلم؟ هذه إشاعات مغرضين هذا بلد العلم والرقي والحرية.. كل ما فيه سامق، الأبنية ناطحات سحاب، والزهور والثمار تكبر هنا كما لاتكبر في أرض في الدنيا، والأطفال ينمون كما لاينمو أطفال في مدينة أخرى، والرجال أقوياء أغنياء، والنساء سمينات، فاتنات ببريق الحضارة.. إننا نشرب من أكسير عجيب يطيل الحياة ويطلق إمكانيات الإنسان ويفعل العجائب.. على فكرة ما صنعتك؟

_ أنا فنان.

- ما رأيك أن تستضيفني الليلة وفي الغد أدلك على محرر؟ إنني أعيش بمفردي في شقة في الطابق العشرين من بناية ضخمة في قلب المدينة.

أمضيا الليلة دون أن يتجاذبا أطراف الحديث. وفي اليوم التالي جلسا في الشرفة يشربان القهوة ويتناولان الفطور.

كانت الشرفة تطل على ساحة واسعة. وفجأة انقطعت فيها حركة السير وانبثق منها لجب مسيرة يهتف فيها الناس:

- ليسقط أكلة اللحوم!.

سأل الفنان الرجل:

- من هؤلاء؟

- جمعية النباتيين!.

وترك كل إنسان عمله ووقف يشاهد المسيرة، وعجت الشرفات والنوافذ بالناس. وقام خطيب على رأس المسيرة وصعد منصة وهتف بالجموع:

- اللحم، سيداتي سادتي، يقصّر العمر. نحن نَعِد الإنسان أن يحيا ثلاثمائة عام إن كف عن أكل اللحوم. المعمرون من جماعتنا النباتيين كثيرون. من يريد أن يكتتب؟ من يريد أن تمتد به الحياة فيسعد بأحفاد أحفاد أحفاده؟

ولدهشة الناس كان أول من أكتتب نمر هائل الجثة سار على مهل فانسحبت من طريقه الجموع حذرة مرتابة.

وهمس الدليل بأذن الفنان:

- هذا هو المحرر.. كل العالم ملك يديه!.

- ولكنه من فصيلة ذلك النمر الذي أبحث عن محرر ليخلصني منه.

- كم هو دمث الأخلاق! كم هو رحيم! أتصدق أن كلبه يعيش في قصر؟ كل ما في الأمر أن على كل إنسان أن يتعلم تجنب إثارة هياجه. انه ليس رهيبا كما تتصور. وها هو يكتتب في جمعية النباتيين.

وضرب الفنان رأسه بيديه.

- لست أصدق عيني. لاشك أنني سأصاب بالجنون.

وربت الدليل على كتفه بحنان:

- لاتفقد الثقة بنفسك. سأفسر لك ما ترى. ألم تعرفني بعد يا صديق طفولتي؟ ونظر اليه الفنان مليا وهتف:

- يا الهي! ابن مدينتي؟ أنت هنا ما تفعل؟

- لقمة العيش يا صديقي، والريح التي مزقتنا شذر مذر.

- أية مصادفة سعيدة ساقتني اليك! الرائد لا يكذب أهله فأنر طريقي. شعرت منذ لحظة بالضياع وباليأس والجنون. كيف تستطيع العيش ها هنا؟

-انني عامل نشيط مرموق.

- حسبتك طيارا.

- انني طيار أعمل لحساب تروست عملاق، كل ما فيه منسق رائع خلاق عدا أن مالكه هو النمر الذي رأيت.

- لماذا لاتقبضون عليه وتضعونه في حديقة الحيوانات، أو تروضونه فيعمل في سيرك؟

- لاأحد يجرؤ على ذلك.. له أساليب في العمل والتعامل معقدة شيطانية، وله أعوان رهيبون.

- هل حقا أصلح حاله وغدا نباتيا؟

- أما أنه غدا نباتيا فنعم، لأن الطبيب نصحه أن معدته باتت تؤذيها اللحوم. عف مرغما!.

- وكيف يعيش؟ كيف أمسك عن شهوة الإفتراس؟

- اكتفى بالجوهر. انه يعيش على البلازما، ويترأس بنك الدم العالمي. المستشفيات بحاجة ماسة الى الدم لإنقاذ الجرحى والمرضى والضعفاء وهو يشرب منها كميات هائلة ليعيش.

- أي أن ضحاياه أصبحت أكثر عددا.

- ضج الناس في مدينتنا لتلك الحال، فاعتزل أياما وليالي، ثم اخترع شبكة ألكترونية رهيبة تمتد فوق الكرة الأرضية خيوطها أعصاب مغناطيسية، دقيقة لاترى، تمص دم كل نائم.

- ولكن الإنسان لاغنى له عن النوم.

- لايجب أن ينام حين يكون مهددا بتلك الأجهزة الخطرة التي تفصل من دمه البلازما!.

- ولكن هذا عسير.

- هناك رجال لاتنام، لأنها تذكر دائما ذلك الخطر.

- أين هم؟ دلني عليهم.
- في مدينتك، وفي كل مدينة تحلم بالشمس.
- سأعود الى مدينتي لأبحث عنهم.
- اليوم عطلة كما ترى وسأوصلك بنفسي.

* * *

عاد الفنان مشرق القلب عند الفجر يحدوه الأمل. وحين اقترب من مدينته رأى رجالا ملثمين يخترقون مخاضة في النهر، وقد رفعوا بنادقهم حتى لايصيبها البلل. هتف بهم:

- أيها الملثمون، يا عابري النهر دلوني على محرر!

فلم يرد عليه أحد. وهمست صفصافة في أذنه، وهي تلمس بأوراقها وجهه: "لن تظفر بجواب. انهم أقسموا تحت أغصاني أن يصوموا عن الكلام حتى تتحرر أرضهم".

وسار الفنان وهو يصغي الى هدير، شبيه بألف مذياع تنطق معا من موجات مختلفة. ولما وصل الى باب مدينته رأى منظرا عجبا: جماعات تهدد وأخرى تنتحب وغيرها ترقص، وفئة تقف دهشة فاغرة الأفواه، وموكب طويل يرفع الأعلام ويجر الذيول ويهتف أفراده: "يعيش النمر النباتي، يعيش النمر النباتي!" وجماعات تتحلق حول تلفزيون كبير أشبه بسينما بانوراما يعرض مسرحية عن النمر الذي برد أنيابه وقلم مخالبه، وخلع رداء حيوانيته وأصبح نباتيا!.

مرت طائرة نفاثة فوق الجموع ونشرت غاز الأعصاب القاتل فأصيب بالتخاذل عدد من سكان المدينة وبعمى الألوان عدد آخر. وقام بينهم خطيب هتف بالناس:

- لنأخذ بحكمة الهند، كان عندهم في الأقدمين وزير داهية. وحين تقدم به السن شاء أن يعتزل، ولكن بلاده كانت في حرب مع عدو شرس. فأبى الملك له أن يستقيل، فقال له "أريد أن أتعبد بقية حياتي، وسأدلك على وزير أفضل مني يحل

مكاني ويضع حدا لتلك الحرب الضارية" فسأله الملك عمن يكون فأجاب "رئيس وزراء العدو تجعله وزيرا لديك"

* * *

صفق الناس للحل الحكيم، ولكن لم تلبث أن ارتفعت قبضات وهددت أصوات لم يؤثر بها غاز الأعصاب القاتل لأنها لقحت بالنكبة.

- لن يهدر دم الضحايا عبثا.

- لاسلام ولا تعايش مع النمور.

- شمسنا لن تسطع، ونحن تحت رحمة نمر يفسد عيشنا، أكانت الغابة التي يسكنها صغيرة أم كبيرة.

- قيدوه! لاتتركوه بينكم يسرح ويمرح ويفتك الفتك الذريع.

وارتفع صوت الخطيب ثانية:

- أقسم النمر على أن لاينهش لحما قط، وشهد عليه رجال كثيرون. وهو منتسب الآن الى جمعية النباتيين.

وما أن سمع الفنان هذا القول حتى اندفع نحو المنصة وأمسك المكروفون:

- ولكنه لم يقسم أن يعف عن البلازما، نسغ الحياة!..

وعول على أن يقص على الناس قصة الشبكة التي تفصل البلازما من دم النيام لتغذي النمر النباتي. ولكنه لم يكد يبدأ حتى عاجلته رصاصة أطلقها أحد أبناء مدينته ممن لم يعجبه هذا الكلام. وأحس الفنان بشيء ساخن في جنبه، فوضع يده على موضع الألم فتخضبت بدمه. وحزن لأن يده فارقتها القوة ولن تستطيع أن تمسك بالإزميل لتنحت محررا لباب مدينته. وارتمى واهن القوى على الثرى، وفجأة لمع في ذهنه خاطر مسح كالبلسم جراحه. "فيم أبحث عن محرر فرد؟ ألست أنا مثلهم في العبادة؟"

رآه أخيرا، في غضب السجناء، في صبر العالم ودأبه، في رشاقة الراقص، في إتقان العامل، في شجاعة رائد الفضاء، في صحوة الدليل، في ايمان المناضلين. ورآه في الأبطال المغمورين الذين يعطون ويسخون في العطاء فيسرق

المنافقون مجدهم!. وأحس أن الحيرة تفارقه، وأن قلبه يتوهج بغبطة رائعة فتمتم لمن اعتصبوا حوله:

- لست وحيدا، لي إخوة يشدون أزري ويشفون جراحي. لي إخوة في كل أرجاء الأرض، يفرحون لفرحي ويحزنون لحزني. إنني أجرح ألف جرح ولكنني لاأموت! الشمس تشفيني وتبلسم جراحي! أحس بها تخترق أعماقي.. أراها بين أهدابهم وفي عيونهم اللامعة.. المحرر الحقيقي هو أنتم، والمحرر الحقيقي هو هنا في أعماقي، أحسه، يفيض في أعماقي.. وفي أعماق كل فرد منكم ان شاء، محرر لايخذله إن رفض أن يجعل من قلبه عبدا!..

* * *